تاريخ أفلمة الرواية وواقع السينما الفلسطينية

جهاد أحمد صالح — دولة فلسطين

السينما صناعة، ويمكن لها أن تشكّل للفلسطينيين وطناً مضاداً للدعاية الصهيونية المتفشية في السينما الغربية، التي كرّستها، منذ نشأتها، بوسائل الإعلام والثقافة، واعتبرتها الصهيونية سلاحاً أساسياً من أسلحتها، ووسيلة فعّالة تساهم في تحقيق أهدافها، فمن بين أربعة مقررات اتخذها المؤتمر الصهيوني الأول في "بال" 1897، خصص واحد من هذه المقررات للثقافة والإعلام، إذ نص البند الثالث على: "ضرورة نشوء الروح القومية والوعي القومي بين يهود العالم وتعزيزها".

وتنفيذاً لهذا القرار، وانطلاقاً من وعيها بدور وسائل الثقافة والإعلام وأهميتها، نشطت السينما الصهيونية منذ السنوات الأولى لنشوء السينما في العالم.

وقد التزمت السينما الصهيونية، في الداخل والخارج، في محاولة لتحقيق جملة أهداف الصهيونية، وأيدولوجيتها وسياساتها وخططها منذ بداية القرن الماضي، بالدعوة إلى الصهيونية (كحركة تحرر وطني للشعب اليهودي)، والتأكيد على وجود شعب يهودي، وحث اليهود (على تنظيم صفوفهم في منظمات وهيئات دولية) للتأكيد على مطالب الصهيونية وتحقيق أهدافها، والاعتماد على الدين اليهودي، وإحياء تقاليده وأساطيره وثقافته، واعتباره ثقافة متميّزة لليهود في أي بلد كانوا، ولأي ثقافة انتسبوا، وصولاً إلى إيجاد ثقافة يهودية وشخصية يهودية لها خصوصيتها، وفي الوقت نفسه الدعوة (للحق) التاريخي لليهود في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين، واعتبار فلسطين (أرض الميعاد) و(وطن اليهود المغتصب) الذي لا بد من (العودة) إليه، ولا حلّ للمسألة اليهودية إلا بهذه (العودة) وإقامة (الدولة اليهودية) على (أرض إسرائيل التاريخية).

أفادت الصهيونية من السينما بشكل جلي، في استخدامها لدعم فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، والتركيز على اللاسامية وما لاقاه اليهود من اضطهاد. وعملت على صبغ الفكر العنصري الصهيوني بالطابع الإنساني، وسخّرت مبدأ حق الشعب في تقرير مصيرها لتطبيقه على اليهود في فلسطين، ومن خلال الهيمنة الصهيونية على قسم من وسائل الإعلام في أوروبا وأمريكا، قبل النكبة.

وبعد النكبة، عملت أجهزة الدعاية الصهيونية، ومن بينها السينما، العمل على إلغاء وجود شعب في فلسطين، وإيهام العالم بأن حق اليهود فيها حق تاريخي، وأن حرب 1948 كانت حرب استقلال لا حرباً

استعمارية خاضها الصهيونيون مع العرب والإنكليز على حد سواء ل "العودة" إلى وطنهم.

وفي سبيل تحقيق هذا البرنامج الضخم عن طريق وسيلة اتصال جماهيرية عظيمة التأثير لم تقتصر الحركة الصهوينية على الأفلام التي يضعها الصهيونيون في مختلف أرجاء العالم، و لم تنتظر فقط قيام الدولة الصهيونية وإنشاء صناعة للسينما فيها، بل عملت على دسّ مبادئها في الأفلام التي تنتج في مختلف البلدان، مستعينة بالفنانين والكتّاب الصهيونيين المشاركين في الفيلم، وترويجها بوسائل الإعلام التي تسيطر عليها الصهيونية أو توجهها.

1. أمام هذه الحملة الإعلامية الشرسة التي استخدمت فيها السينما حسب تصورات وخطط موضوعة ومدروسة وواعية، عجز الإعلام العربي بشكل عام والسينما بشكل خاص، منذ بداية الصراع العربي الإسرائيلي ولغاية 5 حزيران 1967م، عن القيام بأي تحرّك فعلي من شأنه مواجهة الصهيونية التي وجدت نفسها وحيدة في الساحة تصول وتجول كما تشاء. وبالرغم من كون القضية الفلسطينية "قضية العرب الأولى" ومع أنها لعبت دوراً كبيراً على المستوى السياسي وكانت، بشكل أو بآخر، وراء معظم ما عرفته المنطقة من تبدلات وتغييرات في أنظمة الحكم، وبالرغم من أن هذه القضية بالنسبة للعرب هي قضية ارتباط قومي ومصيري بالإضافة إلى كونها قضية إنسانية، مع ما في ذلك من حتمية الصراع ضد الصهيونية العنصرية وضد الكيان الإسرائيلي الذي يشكل رأس حربة للاستعمار في العالم، وخاصة في الوطن العربي، بالرغم من كل هذا بقيت السينما العربية، خاصة المصرية، خلال سنوات طويلة، بعيدة كل البعد عن القيام بأي اهتمام حقيقي بالقضية الفلسطينية من شأنه مواجهة ادّعاءات وافتراءات وأكاذيب الإعلام الإسرائيلي.

2. ويعود تخلّف السينما العربية عن القيام بهذه المهمة الخطيرة، والملحّة إلى أسباب عديدة في طليعتها عدم اهتمام الإعلام العربي جدياً، وخاصة الإعلام الموجة إلى الخارج، بالقضية الفلسطينية والتخلّف الفكري الذي كانت تعاني منه السينما العربية، ولا تزال إلى حد بعيد، وبالتالي عدم إدراك أهمية استعمال السينما كسلاح فكري وأيدولوجي وسياسي وإعلامي، وهيمنة أنظمة الحكم ووسائل الرقابة والقمع على السينما ومنعها من إثارة كل ما له علاقة بالقضية الفلسطينية إلاّ من بعض الجوانب العاطفية الهامشية، ظهرت في سبعة أفلام مصرية فقط، هي مجموع الأفلام العربية التي أشارت إلى القضية الفلسطينية من قريب أو من بعيد قبل نكسة 1967م، وهذه الأفلام هي:

3. **فتاة من فلسطين:** 1948 - إنتاج قطاع خاص – محمود ذو الفقار.

يروي قصة طيّار مصري يسقط على أرض فلسطين بعد إصابته، فتعالجه فتاة فلسطينية، ثم تهاجر إلى مصر، بعد أن يحتل العدو قريتها، وتقيم عند أسرة الطيّار، ثم تحبه وتتزوجه.

4. **أرض السلام:** 1957 – قطاع خاص – كمال الشيخ.

يروي قصة فدائيين مصريين يقومون بعملية فدائية، ثم يختفي أحدهم داخل قرية فلسطينية، وتعتني به فتاة، ويفجّر بمساعدتها خزانات وقود، ثم يعود مع الفتاة ويتزوجها.

5. **سماء سيناء:** 1958 – قطاع خاص – نيازي مصطفى.

فيلم يتحدث عن حرب فلسطين.

6. **طريق الأبطال:** 1962 – قطاع خاص- محمود إسماعيل .

قصة تحكي طريق النصر، تتوه في مجاهل الحب والرقص والغناء.

7. **صراع الجبابرة:** 1963 – قطاع خاص – زهير بكير.

يعرض الصراع العربي الإسرائيلي من خلال عمليات التجسس وصراع المخابرات وهو أقرب إلى الفيلم البوليسي.

8. **جريمة في الحي الهادي:** 1966 – قطاع خاص– حسام الدين مصطفى.

يتحدث عن اغتيال اللورد / موين/ في القاهرة على يد عصابة من شتيرن، و لم يعالج الموضوع معالجة سياسية.

9. **حب وخيانة:** 1968 – قطاع خاص – السيد زيادة.

يحكي قصة الصراع الفلسطيني – اليهودي، ممثلة بقصة / حارة/ يدعي البيك ملكيتها، وهي في الواقع ملك لسكانها، ثم يبدأ الصراع حول سند الملكية، مع إسقاطات غير مقنعة.

السينما العربية بعد حرب 1967

بعد حرب حزيران **1967**، غدت القضية الفلسطينية بتطوراتها المختلفة قضية آنية وملحة عند الجماهير كلها، ولذلك فإنه كان من المتوقع جداً، أن يلجأ المنتج التاجر إلى استغلال القضية للربح، وغدت بنظر هذا المنتج، البضاعة الرائجة التي ينطبق عليها الشعار السينمائي التقليدي (هكذا تريد الجماهير)، إن هذا النمط من المنتجين يهتم بقوانين السوق ويتعامل وفقها، ويلبي حاجات السوق مثل الجنس أو العنف أو العواطف المصبوغة بالمواقف الدرامية، ذات الإطار الاجتماعي المبتذل والمزيف، فبعد حرب حزيران 1967م، وبروز المقاومة، كان السباق على أشدّه، كل منتج يريد أن يسبق الآخرين في طرح فيلم جديد عن القضية، وكان المنتجون يدركون أن إنتاجهم سيّئ، ومع ذلك كانوا متعجلين لإنتاج المزيد.

ولذا شهدت سوق الأفلام الروائية نتاجاً استمدت مادته من المقاومة الفلسطينية ذاتها، و لم تتصد للقضية الأساسية ولا للواقع الفلسطيني مقلّدة الأفلام الأميركية التي تجعل من الفدائي "سوبرمان" أو "سوبركوماندوس" أو رجلاً من رجال "الوسترن" مثل أفلام "كلنا فدائيون" و "ثلاث عمليات في فلسطين" و "الساعة السادسة" و "الفلسطيني الثائر" وغيرها.

وكان من الطبيعي أن تلقى هذه الأفلام على الأقل في البداية، إقبالاً شديداً من قبل جماهير عرفت طعم الهزيمة أكثر من مرة، واعتادت على الخطب الحماسية والشعارات الرنانة، فقام عدد من المنتجين التجّار في سوريا ولبنان والأردن، بشكل خاص، باستغلال عاطفة الجماهير وحماسها للثورة الفلسطينية منذ قيامها عام 1965م، فجرى إنتاج مجموعة كبيرة من الأفلام التي لا تحمل أي فكر سياسي سوى الفكر المتخلف الذي كان وراء إنتاجها، المرتبط بمفهوم شباك التذاكر، فانفصلت السينما تماماً عن الواقع الذي استغلته الجهات المنتجة لتحقيق أرباح مادية على حساب الثورة فقط.

وعلى الرغم من ضحالة هذه المواجهة، بشأن موقف السينما العربية من القضية الفلسطينية، إلا أن هزيمة العرب في حرب حزيران **1967**، وبروز المقاومة وتصاعدها، لا بد وأن يترك آثاراً في قمة الوعي الثقافي العربي، وعلى الأخص السينما العربية، بحيث خلقت النكسة (الهزيمة) عدة نتائج جوهرية.

وفي معرض تحليلنا لهذه الحتمية التاريخية التي صنعت هذا الوعي، فأخرجت، أو خرج منها ثلاثة توجهات سينمائية عربية بشأن القضية الفلسطينية وهي:

1. مؤسسة السينما السورية التي عرفت دورها القومي والوطني بعد النكسة.
2. جماعة السينما الجديدة في مصر رداً على القطاع الخاص والعام.
3. ظهور جماعة السينما الفلسطينية لأول مرة.

أولاً: مؤسسة السينما السورية بشأن القضية الفلسطينية.

أنتجت سوريا بشأن القضية الفلسطينية خلال الفترة من عام 1969م ولغاية عام 1977م، اثنتي عشر فيلماً روائياً، وهي:

1. إكيل الشوك: 1969م، المؤسسة العامة للسينما، نبيل المالح.

يتناول حياة فتاة فلسطينية، ويعرض من خلال ذلك بعض جوانب القضية الفلسطينية، والوضع في المخيمات.

2. ثلاث عمليات داخل فلسطين: 1969م، قطاع خاص، محمد صالح كيالي.

ويتناول العمل الفدائي، دون معرفة أو جدية، يحاول إثارة مشاعر المشاهدين وعواطفهم/ مستغلاً العمل الفدائي لحساب شباك التذاكر.

3. رجال تحت الشمس: 1970م، المؤسسة العامة للسينما: نبيل المالح، محمد شاهين، مروان المؤذن يتكون الفيلم من ثلاثة أقسام ويدور حول مولد الثورة الفلسطينية (سنأتي على ذكرها).

4. عملية الساعة السادسة: 1970م، قطاع خاص، سيف الدين شوكت.

يتحدث عن عملية فدائية داخل الأرض المحتلة.

5. الزيارة: 1970م، المؤسسة العامة للسينما – قيس الزبيدي.

يقدّم واقع الإنسان العربي معتمداً على الشعر والصورة الفوتوغرافية والفن التشكيلي والموسيقى.

6. اليد: 1971م، المؤسسة العامة للسينما، قاسم حول.

7. يتناول أحداث أيلول الدامية 1970 في الأردن.

8. السكين: 1971م، المؤسسة العامة للسينما، خالد حمادة.

الفيلم مقتبس عن رواية غسان كنفاني (ما تبقى لكم) ويحاول أن يشرح بعض جوانب القضية الفلسطينية السياسية والاجتماعية.

9. مائة وجه ليوم واحد: 1972م، المؤسسة العامة للسينما، كريستيان غازي.

يعالج تلازم القضايا الاجتماعية والقومية من خلال قصة عاملين فلسطينيين ينضمان إلى المقاومة.

10. حتى الرجل الأخير: 1972م التلفزيون السوري، أمين البني.

يحكي قصّة دفاع جنود عن موقعهم وتساقطهم أمام هجوم العدو ودفاعاً عن الأرض.

11. المخدوعون: 1972م، المؤسسة العامة للسينما، توفيق صالح.

عن رواية غسان كنفاني، يدور حول هجرة ثلاثة فلسطينيين إلى الكويت تهريباً عبر سيارة /صهريج/ مياه فارغ، وموتهم اختناقاً على الحدود وهم ينتظرون داخل / الصهريج/ لكي يتم تهريبهم لكن سوء معاملة موظفي الحدود تؤدي إلى موتهم. ويقدم الفيلم خلفيات عن حياة الشعب الفلسطيني السابقة وقضيته وظروفه (سنأتي على ذكره).

12. كفر قاسم: 1974م، مؤسسة السينما، برهان علوية.

عن قصة لعاصم الجندي، يتحدث عن مجزرة كفر قاسم التي قامت بها القوات الصهيونية، ويبرز الظروف السياسية والاجتماعية التي سبقت المجزرة وأدت إليها.

13. الأطفال يولودون مرتين: 1977م، المؤسسة العامة للسينما، صلاح دهني.

يصور حياة فتى بريء، تم تشكل وعيه بالقضية والتحاقه بالمقاومة.

على أنني سوف أتناول فيلمين من هذه التجربة، لأنهما حققا بعض الآمال التي كانت مطلوبة في عرض القضية الفلسطينية من إنتاج مؤسسة السينما السورية، وهما:

- **رجال تحت الشمس:**

يتناول الفيلم ثلاث قصص، أو بالأحرى ثلاثة أفلام قصيرة داخل فيلم واحد، يربطها ببعضها خيط درامي رفيع مستغل من الطبيعة وهو (الشمس) التي تتحرك من خلالها الشخوص في الثلاثة أفلام والتي يمثل كل فيلم منها موقفا مستقلا لبداية ونهاية هذه الشمس التي يتحرك تحتها هؤلاء الشخوص، تلفحهم حرارتها ونورها بكل ما يمثله هذا المعنى من أبعاد إنسانية... أي أن هذه القيمة

الدرامية... التي تمثلها الشمس بمثابة اللحن الناعم الذي في الخلفية والذي يترك مهداة على العمل كله بزمانه ومكانه وأبطاله ومواقفه الثلاثة المستقل...

والثلاث قصص هي المخاض، اللقاء، الميلاد، ومن أول لحظة يقابلنا المعنى الفكري الديالكتيكي الذي تمثّله الثلاثة أسماء، أي أن الفيلم من خلال الثلاث قصص إنما يقدّم قضية فلسطين منذ لحظة مخاضها حتى ميلادها... وحتى وإن كانت الثلاث قصص مختلفة كل منها موقف درامي مستقل، يمكن أن يحمل كل منهم في داخله المعنى العام... وهو المخاض واللقاء والميلاد... والثلاث قصص شخوصها مطاردون من قبل الإسرائيليين داخل الأرض المحتلة... أي يتناول فلسطين، وفلسطين وحدها من خلال سوريا... **الأولى** لرجل يهرب مع زوجته مع أهل قريته بعد مداهمة الإسرائيليين لها، والموقف يتطوّر من خلال المخاض السعيد الذي كان يعيش فيه الرجل وزوجته، من خلال التداعيات بالصورة وبين الحاضر ببشاعته وهو يفر أمام كلاب البوليس الإسرائيلية التي تتعقب أثرهم، وآلام المخاض التي تعانيها الزوجة أثناء ذلك حتى تضع وليدها، لتتلقفهم في النهاية دوريات المقاومة الفلسطينية... **والثانية** موقف فتاة نرويجية جاءت إلى الأرض المحتلة لتزور والدها الذي يعمل داخل إسرائيل، وبدلاً من مقابلته تلتقي بفدائي فلسطيني بعد عملية فدائية، قتل فيها الفدائي الفلسطيني سائق السيارة التي تستقلها، لتواجه النرويجية بواقع جديد من خلال العلاقة الوجيزة التي تقوم بينها وبين الفدائي، والتي لا يكف فيها الإسرائيليون عن مطاردة الفدائي والفتاة معه، حيث تعرف الفتاة فيها البعض عن حياة الفدائي وعن القضية، من خلال الصورة أيضاً بدلاً من الحوار، ليتركها الفدائي في النهاية في نفس لحظة إحاطة القوات الإسرائيلية بالقرية التي كانوا يختبئون فيها، داخل كنيسة حيث يخرج الإسرائيليون أهالي القرية منها ليفجروها بكاملها وحيث تقف الفتاة مروعة بما جرى. **والثالثة** لفدائي فلسطيني كان يعمل مدرساً قبل انضمامه للمقاومة الفلسطينية، ومن خلال تداعيات مستمرة بالصورة لماضيه من خلال ذكرياته مع مدرسته وأطفالها وزوجته، وبين الحاضر بما فيه من شراسة المعارك التي يخوضها الفدائي، ينتهي الموقف بإصابته في إحدى العمليات.... ثم قتله لأحد الجنود الإسرائيليين بإلقاء قنبلة عليه حيث يطلق النار في النهاية محموماً.

ولعل أقوى ما في (رجال تحت الشمس) ليس طرح القضية الفلسطينية بهذه الصورة من التركيز والقوة والعقلانية... إنما في شيء أشمل هو تحرر الفيلم الروائي العربي من ديماغوجية الحوار والحدوته والخطابية، التي تميّز مثل هذا النوع من الأفلام إلى الصورة السنمائية البليغة القادرة على تحريك الشخوص، مع إيصال المعنى العام من خلال هذه الصورة، ولكن بشكل حاد ومؤثر يصل إلى مستوى الصدمة... على أن هذه العقلانية الراقية ترقى إلى مستوى المثقف العربي ورجل الشارع في العالم المتقدم، وذلك شيء افتقدناه زمنا طويلاً، وهو المقدرة على مخاطبة الفكر المتقدم في صميم أسلوب تفكيره للأشياء والأحداث والقضايا التي يعيش بعيداً عنها أو بمعزل عنها...

- **المخدوعون:**

أول شيء في عملية إنتاج هذا الفيلم هو حقيقة أكثر روعة، فالمنتج هو مؤسسة السينما السورية – بينما الكاتب هو الشهيد الفلسطيني غسان كنفاني. والعاملون بالفيلم سوريون، وكاتب سيناريو الفيلم ومخرجه مصري وهو توفيق صالح... والقضية هي واقع الشعب الفلسطيني المشرد في دولة عربية وهي الأردن.

ويقوم الموقف الدرامي في (المخدوعون) ممثلاً في ثلاثة أجيال منه من شرائح مختلفة في العمر، يمثلون القضية منذ بدايتها حتى اليوم يقدّمهم توفيق صالح على التوالي (أبو قيس– أسعد– مروان)، ماضيهم ومعاناتهم حتى حاضرهم، حيث يجمعهم هدف واحد وهو الانتقال إلى الكويت سراً، للعمل هناك حيث يأملون في بدء حياة أكثر آدمية، في وسط مجتمع صنع البترول ثراءه، حيث يسر

العمل والنقود الكثيرة التي يمكن لهم بها أن يسدوا أودهم وأود عائلاتهم التي تركوها خلفهم كل منها في مأساة. وذلك بالنسبة (لأبو قيس ومروان)، أما بالنسبة (لأسعد) فهو مطرود من الرملة صبياً صغيراً ويعيش في حلقة متصلة من الهرب، فهو قادم من العراق خلسة هرباً من مطاردات الشرطة الأردنية، واسمه مسجل في جميع نقاط الحدود لاعتقاله... لكن الثلاثة يموتون أثناء توقف السيارة التي يختبئون داخل خزانها الفارغ من البترول، والتي يعمل عليها فلسطيني وهو (أبو الخيزران) والذي يعمل لدى أحد الأثرياء الكويتيين، في الفترة الزمنية التي يقضيها هذا السائق الفلسطيني داخل نقطة حدود كويتية، حيث تزيد الفترة الزمنية التي يقضيها السائق عن الحد المقرر لاختبائهم، فيختنقون داخل الفنطاس (الخزانة) من حرارة الشمس القائظة، والتي تقلي البيض من شدتها. ويكون سبب زيادة الفترة الزمنية هو محاولة العاملين الكويتيين في النقطة المكيفة الهواء مداعبتهم مع السائق حول عشيقة له تعمل راقصة بالبصرة، يتهموه بان له علاقة بها، وتنفق عليه عشقاً في فحولته... بينما هو في الحقيقة (فاقد الرجولة) لإصابته بشظية لغم أثناء نضاله ضد الصهاينة. ويخرج السائق ليلقي بالجثث الثلاثة على كوم قمامة على جانب الطريق.

على أنه إذا كان "رجال تحت الشمس" كان أول فيلم عربي ينسج نفسه عن الفلسطينيين من خلال واقع المقاومة الفلسطينية. فإن فيلم (المخدوعون) يعتبر أعمق تحليل للواقع الفلسطيني المشرد حتى الآن. بل إن هذا الفيلم الفذ من ناحية أخرى (دعوة إلى الثورة). فالمخدوعون ليس مجرد فيلم يعرض لحادثة بل هو تشريح اجتماعي وسياسي لواقع القضية من خلال شخصياته الرئيسة (أبو قيس – أسعد – مروان- أبو خيزران) الذي أتى منه ومأساة كل منهم. أبو قيس الذي وعى نكبة الطرد لاجئاً جائعاً هو وأسرته ثم أسعد الشاب المستمر الهرب ومطلوب الاعتقال، ثم مروان الذي سبقه أخوه إلى الكويت ثم قطع عن أبيه وأمه وإخوته النقود التي كان يساعدهم بها. فاضطر الأب إلى الزواج بأنانية بفتاة مبتورة الساق تستعيض عنها بشاق خشبية، وتملك منزلاً ليجد مروان نفسه أمام لهيب الحياة، وجوع أمه وإخوته مضطراً هو الآخر إلى التروح إلى الكويت حتى يعولهم... ثم أبو خيزران ذلك الرجل الذي خصته شظية لغم ويعيش هائماً بين العراق والكويت بسيارة ثري كويتي، لا يعرف معنى لحياته سوى جمع المال، من أجل تأمين مستقبل لمن لا مستقبل له تأكله مأساة فقد رجولته.

ثم الواقع السياسي الذي تتحرك عليه الشخصيات والذي يتمثل في الجزء التسجيلي المأخوذ عن الصور الفوتوغرافية للحكام العرب الذين صنعوا واقع المأساة.

تجربة "السينما الجديدة" في مصر

والمخرج الفلسطيني غالب شعث

ما يعنينا في سيرة حياة المخرج الفلسطيني غالب شعث، أنه عاد بعد دراسته في النمسا عام 1968 إلى القاهرة، محملاً بالآمال الكبار في أن يقدم سينما على مستوى سياسي، ليس فقط على صعيد القضية الفلسطينية، بعدما قدّمت لها من أفلام هابطة، بل على صعيد القضايا العربية عموماً، وتقديم التناقضات الدرامية لتشكّل الخلفية الحقيقية لما يشغل فكر الإنسان العربي الواعي لقضيته، وتقديم سينما جادة تتربع على عرش الإنتاج السينمائي، الخاص الفاسد، والقطاع العام الأكثر فساداً. وفي مصر التقى بالناقد السينمائي "سمير فريد" والسيناريست "رأفت المهي" والمخرج السينمائي "محمد راضي" ومخرج الأفلام التسجيلية "فؤاد التهامي" ومدير نوادي السينما بالثقافة الجماهيرية "فتحي فرج" والمونتير "أحمد متولى" وآخرين، حيث أسسوا جماعة السينما الجديدة التي رأسها في مرحلتها الأولى "محمد راضي" وجاهدوا من أجل إيقافها على قدميها، وانتزعوا بعد صراع مرير وانساني، ان تقدّم لهم الدولة الدعم "المشترك" وقدّموا فيلميهم اليتيمين.. وكان أحدهما فيلم "الظلال في الجانب الآخر"، من إخراج غالب شعث، اشترك في عمله كبار الممثلين مثل: محمود ياسين ونجلاء فتحي وأحمد

مرعي ومحمد لطفي ومحمد حمام ومديحة كامل وعايدة عبد العزيز وغيرهم.

وكانت فكرة المخرج تتمحور حول: "ما أكثر ما تخفيه الظلال من حقائق، ولكي نرى واقعنا بدون ظلال، لا بد وأن تتعدد مصادر النور".

تقع علاقة بين فتاة صغيرة، وطالب بكلية الفنون، انجبا طفلة من هذه العلاقة لكنها توفيت إثر مرض ألمّ بها، فترك الطالب الطفلة، والتحق بمجموعة من أصدقائه الذين يقيمون في عوامة، وكان من بين الأصدقاء شاب فلسطيني بدأ باكتشاف عالمه كاملاً، من خلال تلك الشريحة من الشباب المصري، الذي يعيش بلا مبالاة في ظل أحزان النكسة (هزيمة حزيران)، وما سببته من ضياع وبؤس، هكذا اكتشف هذا الفلسطيني أنه يعيش في عالمين من التمزّق والضياع، ضياعه هو كمشرّد فلسطيني، وعالم زملائه المصرين الذين يعانون من تمزّق النكسة.. فنجد هذا الشاب نفسه في النهاية تاركاً لهذه الصحبة والرحيل إلى القدس، مقدّماً خطابه به إلى أحد أصدقائه، يقول فيه "إنني وجدت الأسلوب الذي أستطيع به أن أعبر عن نفسي، وعن قضيتي خصوصاً، بعد أن أصبحت للمرة الثانية بلا وطن، إننا لا نملك إلا أن نخوض هذه الحرب (العمل الفدائي) فلم يبق لدينا ما نخشى أن نفقده".

أي أن غالب شعث قد قدّم قضيته الفلسطينية بعملية المزج أكثر شمولاً لحقيقة النضال العربي ضد إسرائيل، من فيلمي "رجال تحت الشمس" و "المخدعون" ولكن بشكل غير مباشر، أي أن يدور لها من الخلف".

هاتان التجربتان في سوريا ومصر، من أجل خلق سينما عربية جادة، تطرح قضايا المنطقة العربية وطموحها السياسي والاجتماعي، لقيت هجوماً مباشراً وقوياً من قبل القطاع الخاص، ومن قبل الراكضين إلى شباك التذاكر، وادعاء تقديم القضية من ناحيتهم فقط، فأدى إلى قيام مؤسسة السينما بتغيير إدارتها، وتفرّق جماعة السينما الجديدة في مصر وتوقف دعم الدولة لهم، فأحبط بالتالي (مرحلياً) العمل بشكل جاد حول طرح القضية الفلسطينية في السينما العربية.

أما في العراق، فقد بدأ إنتاج القطاع العام الروائي الواسع منذ عام 1969م، حيث قدّمت السينما العراقية وحدها في ذلك العام أربعة أفلام روائية هي:

1. "البداية" لعباس الشلاء

ويروي انطلاقة العمل الفدائي، وأهمية الكفاح المسلح، وضرورة الحرب الشعبية طويلة الأمد، وكان هذا الشعار منتشراً في ذلك الوقت، تشبهاً بفيتنام، ورداً على الهزيمة.

2. "الفدائيون" لعباس الشبلاه آيضا

وقد تناول كفاح الفدائيين الفلسطينيين واندفاعهم لتحرير أرضهم، لكنه يفتقد للتحليل السياسي.

3. "أنشودة" لايمانوبل رسام

وقد تناول العمل الفدائي دون أية فكرة أو تحليل سياسي.

4. "البرتقال الحزين" لكوركيس يوسف

يعالج فيه قصة عائلة فلسطينية تهجرت من ديارها، وأصبحت مشردة.

لكن هذا الانتاج السينمائي الروائي قد توقف مدة ثلاث سنوات (ربما بسبب الأحداث في الأردن)، ليعود في عام 1973، عن طريق القطاع العام العراقي مع القطاع الخاص، لإنتاج ما يقارب ستة عشر فيلماً روائياً بشأن القضية الفلسطينية، هي:

1. زهرة البرقوق: 1973م، مؤسسة السينما، ياسين البكري.

عن قصة غسان كنفاني، يعرض قدرة الإنسان الفلسطيني على المقاومة، ويحكي اعتراف إحدى الفدائيات على رفيقتها إثر اعتقالها من قبل سلطات العدو، ثم انغماسها في الثورة.

2. الساقية: 1973م، مؤسسة السينما، حسين علوان.

3. اللعبة: 1973م، مؤسسة السينما، شيراك سورين.

مجموعة من الأطفال يلعبون بمخلفات الحرب من رصاص وقنابل، إن اللعبة التي يقومون بها، هي لعبة الحرب نفسها، وأثناء اللعبة يتم هجوم صهيوني ويسقط أحدهم فيستشهد، وينتهي تصوير بقية الأطفال في معسكر للأشبال يتدربون.

4. الشتاء المر: 1973م، مؤسسة السينما، محمد شاكر جميل.

يدور حول سيدة فلسطينية تأتى إلى العراق بعد حرب 1967م، ويكبر ابنها وينضم للعمل الفدائي، وتبقى الأم بانتظار عودته مع أبيه الذي يعتبر في عداد المفقودين. ثم تكتشف الأم أهمية البندقية وتنخرط في الثورة.

5. البيت: 1973م، مؤسسة السينما، كاظم العطري.

يدور حول فكرة أن لكل الناس بيوتاً تأوي إليها باستثناء الفلسطيني، وهو مأخوذ عن قضية لزكريا تامر تحمل الاسم نفسه.

6. الأرجوحة: 1976م، وحدة الإنتاج السينمائي بالتفزيون، نوفل فرحات.

فدائي عراقي يعود لينقل خبر استشهاد رفيقه في الأرض المحتلة، ولكنه يتراجع حين يلتقي بزوجة الشهيد وابنته، ثم تكتشف العائلة الحقيقة وتتغلب على عاطفتها وتشعر بالفخر.

7. لقاء: 1976م، وحدة الإنتاج السينمائي بالتفزيون، سعيد عماشه.

يأتي على مجمل الآراء في القضية الفلسطينية ليخلص إلى ضرورة الوحدة على طريق النضال، الذي يعتبره أساس الحياة والحب، ووسيلة لنيل الحرية والكرامة واستعادة الأرض.

8. أطفالنا: 1976م، وحدة الإنتاج السينمائي بالتفزيون، نوفل فرحات.

يدور حول شخصية فلسطينية ترفض الواقع وتصر على تغييره، إنها ترفض الانحراف الذي تشهده الساحة العربية والتنازلات، مؤكداً على أن قوة السلاح هي الحكم.

9. الحقل: 1977م، مؤسسة السينما، صبيح عبد الكريم.

يحكي الصراع العربي الصهيوني، ويبرز تشبث الإنسان العربي بأرضه، ويظهر العنف الصهيوني ومحاولاته المستمرة لإفراغ الأرض من أصحابها الشرعيين، وعندما رفض الفلاح ترك أرضه يجد نفسه في موقع الصدام المباشر مع آليات العدو، ثم يحمل بندقية ليقاوم ويستشهد تاركاً الأمانة لابنه الصغير.

10. انتفاضة: 1978م، وحدة الإنتاج السينمائي بالتلفزيون، محمد منير فنري.

يستمد مادته وأحداثه من موضوع الانتفاضات الجماهيرية في الأرض المحتلة، ويكشف عن أساليب القمع الوحشي التي يتعرض لها العرب من قبل المحتلين الصهاينة.

11. هدية إلى مقاتل: 1978م، وحدة الإنتاج السينمائي، نوفل فرحات.

يعرض ما يواجهه المقاتل الفلسطيني في صراعه ضد قوى البطش والعنصرية، مما يؤكد ضرورة الدعم المعنوي له على الأقل، طالما أن الدعم المادي لا يقدم له كما يجب.

12. وطني حبيبي: 1964م، قطاع خاص، محمود كعوش.

أحد الأفلام الروائية البدائية الساذجة، وخاصة في رؤيته للقضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي، من خلال قصة حب مأساوية صيغت بأسلوب ميلودرامي.

13. رسالة إليك: 1968م، دائرة السينما والتصوير، علي صيام (التلفزيون).

يتناول قصة فتاة فلسطينية تهاجر بعد عدوان 1967، ويعالج موضوعه بأسلوب ميلودرامي يحاول استدرار العاطفة.

14. الطريق إلى القدس (العودة): 1969م، دائرة السينما والتصوير، عبد الوهاب الهندي.

يروي قصة شاب فلسطيني يدرس في القاهرة، يزور أهله في المخيمات في الأردن، فيتلقى هناك رسالة من صديق يعلمه فيها أن أحد أصدقائه قد استشهد في إحدى

العمليات الفدائية، فيقرر الالتحاق بالعمل الفدائي ويشارك في إحدى العمليات فتصاب ساقه وتبتر.

15. أجراس العودة: 1969م، قطاع خاص، تيسير عبود.

يدور حول العمل الفدائي ويعتمد على الميلودراما والحماس.

16. كفاح حتى التحرير: 1969م، قطاع خاص، عبد الوهاب الهندي.

يعتمد على الصور والتبليغات والشعارات الثابتة، ويترجم بعض البلاغات العسكرية إلى صور، أحداثه مفككة وصورة عشوائية.

وفي العراق أيضاً فقد بدأ بتنظيم مهرجان دولي لأفلام وبرامج فلسطين، ويعقد المهرجان بدءاً من عام 1973 مرة كل سنتين في بغداد، وتعتمد أعماله على توطيد العلاقة بين عناصر السينما النضالية وتثبيت أسس رؤية واقعية وعملية، وتكثيف التجربة الحسية في ميدان سينما فلسطين، وبلورة هوية فكرية عملية ومحور منهجي واضح للفيلم الفلسطيني. وقد نجح المهرجان حتى الآن في استقطاب الكثير من الأفلام والبرامج التفزيونية المنتجة في العالم العربي وخارجه عن فلسطين. وتعقد في إطار كل دورة من دوراته حلقة بحث خاصة بأفلام وبرامج فلسطين، تحقيقاً للهدف الفكري من إقامته ووصولاً إلى أفلام أكثر عدداً وأنضج محتوى.

وفي الجزائر انتخبت السينماتيك الجزائري عام 1973م، فيلماً واحداً أخرجه محمد سليم رياض، كتبه مع إيناس فرانكومش وأحمد رشدي، يحكي قصة عملية فدائية، يفجّر من خلالها الفدائي نفسه مع الضابط الصهيوني لكي تهرب المجموعة الفدائية.

على أن أهم ما يميّز هذا الفيلم، هو تعبيره تعبيراً جلياً عن مبادئ الثورة الفلسطينية، ربما أكثر من أي فيلم روائي طويل آخر، وتدور أحداث الفيلم في الأرض المحتلة أيضاً، عن عمليات الفدائيين، ويستخدم الفيلم تكتيكاً أقرب إلى الأفلام الحربية التي أنتجتها هوليود عن أفلام العصابات في كوريا وغيرها، من شكل الحركة وأساليب المعارك التي يخوضها الفدائيون، حيث النزعة التجارية من أجل الربح.

ولكي لا نقع في حبال الوهم، نشير إلى أنه رغم تناول موضوعات القطاع العام عن موضوعات القطاع الخاص، والتنوع النسبي لها، ورغم تناولها لعدة جوانب من القضية الفلسطينية، فإن هذا التنوع لم يكن متوازناً، فنشاطات العمل الفدائي، وأعمال المقاومة، بقيت هي الطاغية على المواضيع الأخرى، ولا ينطلق من خطة واعية وشاملة ومبرمجة، وبالتالي بقي إنتاج القطاع العام الروائي، بعيداً عن استيعاب جوانب القضية كلها، واحتياجات الثورة كلها، وتنوع جوانبها، والإحاطة بكامل الأهداف والمهمات، وتكاملها بما يفي بالغرض المطلوب.

الأفلام الأجنبية بشأن القضية الفلسطينية

بعد حرب حزيران عام 1967، ونشوء حركة المقاومة الفلسطينية، واتساعها بعد معركة الكرامة، وفد إلى مناطق تواجد الفلسطينين قواعد ومخيمات، مجموعة من المصورين الأجانب ليسجلوا إلى وكالات الأنباء ومكاتب الأرشيف جملة من الوثائق عن حياة الشعب الفلسطيني الذي بدأت قضيته تأخذ بعداً أكثر إنسانية، نتيجة للواقع الموضوعي الفريد من نوعه الذي عاشه الشعب ضمن ظروف غير أمنية على مستوى المنطقة، غير إنسانية على مستوى التآمر الإمبريالي الصهيوني.

ومع عودة الكاميرات الأجنبية إلى المنطقة، جاء عدد من السينمائيين والمصورين ليحققوا أفلاماً من نوع خاص لتستعمل في غير صالح المقاومة والشعب الفلسطيني، ولقد أغفلت الثورة وللأسف أهدافهم، وقد جاؤوا بتوصية منها، ووفروا لهم زياراتهم، وساعدوهم، فسمحت للكثيرين منهم بتسجيل ما يريدون تسجيله دونما رقابة... فتم تصوير مجموعة من الأفلام التي خدمت إلى حد بعيد الإعلام الصهيوني الذي يؤكد على أمرين:

1. حق اليهود الذين عانوا من الاضطهاد النازي في العيش في وطن قومي خاص بهم.
2. أن الفلسطينيين هم مجموعة من الإرهابيين، رغم أنهم لم يقاسوا كثيراً في حياتهم، قياساً بما تحمله اليهود.

ولا بد من القول، إن هؤلاء لم يكونوا غالبية السينمائيين والمصورين الذين قدموا إلى المنطقة، بل إن الثورة والقضية الفلسطينية لاحت لها فرصة ذهبية في الفيلم التسجيلي والروائي الأجنبي، وكان من أول الأفلام الفرنسية في هذا المجال فيلم "فلسطين" الملون الطويل (ساعة ونصف الساعة) لبول لوي سوليبه، وقد انتج بمعاونة الاستعلامات الجزائرية، وهو عبارة عن ريبورتاج صور داخل الأرض المحتلة وفي الأقطار العربي. وقد أصبح وثيقة مهمة جداً عن محاولة إفناء الشعب العربي الفلسطيني. وفيلم "فلسطين ستنتصر" لجان بيير أوليفييه دي سردان بالتعاون مع جهة فلسطينة، ويوضح الإرداة الصلبة للمقاومة بعد معركة الكرامة بالأردن. وصوّر كارول وبول روسوبولس من فرقة "فيديواوت" ريبورتاجاً بعنوان "سأحرق هذه المدينة" وانتقل جان لوك غودار إلى الأردن لتصوير فيلم "حتى النصر" تحت رعاية منظمة فتح، ولكن الفيلم لم يظهر في عروض جماهيرية واسعة و لم يعرض حتى في الدول العربية.

وفي الاتحاد السوفييتي انتجت عدة أفلام آخرها عام 1979م وهو "الفلسطينيون: حق في الحياة". وأنتجت يوغوسلافيا وبلغاريا وعدة دول اشتراكية أخرى أفلاماً أو برامج تلفزيونية. وصورت المنظمات اليسارية في ألمانيا الفدرالية أفلاماً عن أحوال سكان المخيمات الفلسطينية، وأنتجت مثل هذه الأفلام المنظمات اليسارية في إيطاليا واليابان وبلجيكا والدنمارك وهولندا. و لم يبلغ فيلم أجنبي من عمق التأثير ما بلغه الفيلم الإنكليزي الذي أنتجته وقدمته فانيسا ردغريف بعنوان: "الفلسطيني"، ومدة هذا الفيلم ثلاث ساعات، وهو من إخراج روي باترسباي، وصور في أعقاب سقوط تل الزعتر، وقدّم مسحاً شاملاً ورهيباً لأحوال الفلسطينيين في ظل الصمود الأسطوري في تل الزعتر، وفي الجنوب اللبناني، وانتهى بنظرة أمل مشرقة.

وهذه الأفلام الأجنبية التي أنتجتها هيئات حكومية أو جامعات وأحزاب ذات صفة تقدمية أو يسارية أدت للقضية الفلسطينية، بل للقضية العربية، خدمات جلية، وقامت بالدور الذي لم يتمكن الإعلام العربي من القيام به دعماً للحق العربي، فقد صنعت بأيدٍ أوروبية تعرف كيف تتوجه إلى الضمير الأوروبي، كما أنها تقدر من ناحية التوزيع على ما لا تقدر عليه الأفلام العربية التي أنتجتها هيئات عربية. فهي عندما لا تعرض عرضاً تجارياً في الصالات العامة يقدمها منتجوها الأوربيون في عروض خاصة داخل التجمعات العمالية والطلابية، وقد يتمكنون من عرضها في بعض أقنية التلفزيون.

ومن الأفلام الأجنبية التي وقفت إلى جانب القضية الفلسطينية، استطعنا التوصل إلى هذا الجدول، ويضم:

اسم الفيلم	سنة الإنتاج	بلد الإنتاج	المخرج
1. فلسطين ستنتصر	1969	فرنسا	جان بير أوليفييه
2. ألاردن في الساعة الفلسطينية	1969	فرنسا	جان برتولينو، برونوفييل
3. فلسطين	1970	فرنسا والجزائر	بول لويس سوليييه
4. حتى ذلك الوقت	1970	بريطانيا	جميس غراغير
5. فتح – فلسطين	1970	إيطاليا	لويجي بير يللي
6. بلادي ثورة	1970	سويسرا	فرانسيس ريسيير
7. ولكن عندما أكون جائعاً	1970	بلجيكا	
8. سأحرق هذه المدينة	1971	فرنسا	كارول وبول روسوبولس
9. فلسطين أين تقع	1971	المانيا الاتحادية	مانفريد فوس
10.القدس في خطر	1971	انكلترا	كابو
11.أنا لن أنسى فلسطين	1972	هولندا	ترودي فان كولن
12.الطريق المنطقي الوحيد	1972	انكلترا	تيم هوهنبوكن
13.فلسطين والدانمارك نضال مشترك	1972	الدانمارك	نيلزفيست
14. أرض الميعاد	1973	المانيا الاتحادية	الموت هيلتسر
15. لأنها فلسطين	1973	المانيا التحادية	فريدريك هيتزر – مانفريد فوس
16. ثورة حتى النصر	1973	الولايات المتحدة	إخراج جماعي
17. إسرائيل	1974	المانيا الديمقراطية	سابين كاتنس
18. جنازة محمود الهمشري	1974	فرنسا	كارول وبول روسوبولس
19. الحياة بحرية	1974	بريطانيا	
20. الفلسطينيون	1975	هولندا	جون فان ديركوكن
21.الانتصار هنا وهناك	1975	فرنسا	جان لوك غودار
22. اللاجئون الفلسطينيون في لبنان	1975	فرنسا	روجير بيك
23. مجرى الحياة	1975	المانيا الاتحادية	مانفريد فوس
24. الزيتونة	1975	فرنسا	غي شابوليه
25. الطريق إلى فلسطين	1975	يوغوسلافيا	خير الدين سومون
26. العصفور والقطة	1976	بلجيكا	بيرمونس وجان جاك بيشيه

27. الحلم	1976	هولندا	يان فيسر
28. كل شعب مضطهد له الحق	1976	الدانمارك	نيلس فيست
29. الرشيدية	1977	المانيا الاتحادية	جماعة نيوبروميثيوس
30. الفلسطينيون لهم الحق في الحياة	1979	الاتحاد السوفيتي	فلاديمير كوبالين
31. أطفال فلسطين		المانيا الديمقراطية	كورت تيسلاف
32. فلسطين فيتنام أخرى		إيطاليا	سينما توغرافيكا
33. وطننا فلسطين		اليابان	تيومارو أوثاني
34. على طريق فلسطين		يوغوسلافيا	جماعي
35. أطفال من فلسطين		ألمانيا الديمقراطية	بربارا بايزرد
36. قتال حتى النصر		فنلندا	جماعي
37. دم ودموع		يوغوسلافيا	اسكندر كولي
38. فلسطين واليابان		اليابان	تيوماروأوثاني
39. ذكريات تل الزعتر		ايطاليا	فينومينوري
40. الفلسطينيون 30 سنة من الكفاح		يوغوسلافيا	ستيفان شتوكيليا
41. الفلسطيني		انكلترا	روي باترسباي
42. أم نمر		الدانمارك	هاتانيلسن وكارل هوفر
43. إني أتذكر		بوغوسلافيا	أربون أوتورس
44. لماذا يصمت العالم		فنلندا	اريوثاهاتيلا

السينما الفلسطينية ... بين الواقع والتحديات

ولدت السينما على الأرض الفلسطينية في فترة مبكّرة، قبل عام النكبة 1948م، بفارق سنوات قليلة، زيادة أو نقصاناً، حيث ولدت سينمات المشرق العربي المعروفة كلها، وقد تعرّف الناس على الأخوين الفلسطينيين إبراهيم وبدر لاما الذين قدما إلى مصر، في عام 1924م، فاندفعا نحو التصوير السينمائي ليحققا نجاحاً سريعاً، ثم انضما إلى (جماعة أنصار الصور المتحركة) التي سرعان ما تحولت إلى شركة سينمائية عرفت باسم "مينا فيلم" ضمت كل الهواة. ولأن طموح الشقيقين كان كبيراً انفصلا عن هذه الشركة وأسسا شركة خاصة بهما حملت اسم "كوندور فيلم" وباشرا بإخراج بدايات الفيلم المصري منذ عام 1927م.

بغض النظر، إذ كان الأخوان قد أسسا بدايات السينما المصرية أم لا، إلا أن بداية وجود السينما على الأرض قد تم بإبراهيم حسن سلامة الذي تمكن عام 1925م، من تصوير فيلم مدته عشرون دقيقة عن زيارة الملك عبد العزيز آل سعود لفلسطين، وتنقله بمرافقة الحاج محمد أمين الحسيني.

بعدها قام سرحان بمساعدة صديق له يدعى جمال الأصفر بصنع فيلم "أحلام تحققت" وفيلم عن أحمد حلمي (باشا) عبد الباقي عضو الهيئة العربية العليا، وقام بتأسيس "ستوديو فلسطين" فأنتج مع مساعدة فيلماً عن قصة بعنوان "في ليلة العيد"، وأعلن عن تصوير فيلم بعنوان "عاصفة في بيت"، وبقي سرحان يصور وحده حتى عام 1948، حيث توقف كل إنتاج سينمائي على الأرض الفلسطينية، وقد قامت القوات الإسرائيلية بالإجهاض النهائي على السينما الفلسطينية لخنق الثقافة الوطنية الأصلية للفلسطينيين.

لذلك فإن كل حديث يدور حول السينما الفلسطينية إنما يعني تلك التي وجدت في أعقاب ميلاد الثورة الفلسطينية. وفصائلها المختلفة، أي بعد عام 1965م.

بدأ الميلاد المجيد للسينما الفلسطينية بتكوين قسم صغير للتصوير الفوتوغرافي، عملت فيه السيدة "سلافة مرسال" الخريجة من المعهد العالي للسينما بالقاهرة في حقل التصوير الصحفي، كانت تقوم بأرشفة صور الشهداء إلى جانب مواد ووثائق أخرى تتعلق بالثورة.

استمرت الحال على هذا النحو إلى ما بعد معركة الكرامة مباشرة. فقد تدفّق الصحفيون من أنحاء العالم لرؤية هؤلاء الذين استطاعوا أن يقاتلوا صامدين 19 ساعة، ولمعرفة ما يشير إليه هذا الصمود. ومن هنا برزت الحاجة إلى الصور الفوتوغرافية والسينمائية التي تقول للعالم ما تريده الثورة. وعزز تلك الحاجة تجارب إيجابية وسلبية مرت بها الثورة مع المصورين الأجانب الذين وفدوا إلى المنطقة. وقد صوّر إسماعيل شموط بالسينما مواقع معركة الكرامة وقواعد الفدائيين ومشاهد تشييع الشهداء في فيلم أسماه "معركة الكرامة ردت لنا الكرامة".

بدأ نشاط سينمائي بسيط ضمن إطار قسم التصوير الذي خصّ بمكان عام 1969م، ومنح بعض الإمكانات المادية. وضوعف عدد العاملين فيه وكانوا يستعيرون آلة تصوير سينمائي مقياس16 مم لتسجيل كل ما يمكن تسجيله دونما خطة عمل محددة، انطلاقاً من أن بعض الثورات افتقرت خلال المراحل المتقدمة من مسيرتها، وبعد التحرير، إلى أفلام تسجّل نضالها. فتسجيل ما يحدث سوف يكون بعد سنوات مادة وثائقية نادرة وثمينة توضع في متناول السينمائيين والباحثين والمؤرخين دون اللجوء إلى جهات خارجية قد تطلب أسعاراً باهظة لها.

وفي أواخر 1969م، حصل القسم على آلة تصوير سينمائي متقدمة مع إمكانات التسجيل المباشر للصوت، الأمر الذي فسح المجال للتفكير في وضع خطة إنتاج في خدمة الثورة، وكان أول فيلم سينمائي أنجز بعد ذلك "لا.. للحل السلمي" الذي جاء رداً على مشروع روجرز الأمريكي. وقدّم الفيلم في أول عرض له على المسؤولين القياديين في ملجأ تحت الأرض وهم وقوف على التراب والحجارة. وفي أعقاب الأحداث الدامية في ايلول 1970م

ظهر فيلم "بالروح بالدم" وأرسلت بعض المواد الأخرى المصورة إلى الخارج وعرضت أثناء مؤتمر القمة الذي أنعقد في القاهرة.

ارتبط العمل السينمائي الفلسطيني بالكفاح المسلح منذ البداية، واستمر على هذا النحو، وقام بإنتاج أعداد متزايدة من الأفلام القصيرة. وقد ساعدت وحدة أفلام فلسطين التي اتخذت هذه التسمية تمييزاً لها من قسم التصوير على إنشاء "جماعة السينما الفلسطينية" التي أنضمت إلى مركز الأبحاث الفلسطينية، وقدمت نتاجاً لتجارب السينما من خلال التنظيمات الفلسطينية. وقد شملت هذه الجماعة السينمائيين الذين انضموا للعمل ضمن أطر تلك التنظيمات وعدداً من السينمائيين التقدميين العرب. وانطلقت من هدف تجميع الجهود من أجل سينما فلسطينية ترافق نضال شعب فلسطين.

أنتجت جماعة السينما الفلسطينية فيلماً واحداً هو "مشاهد الاحتلال في غزة"، ثم توقفت عن الإنتاج لأسباب تنظيمية، مثلما تم تكوينها لأسباب تنظيمية. ومع توقفها تابعت وحدة أفلام فلسطين العمل باسم "أفلام فلسطين – مؤسسة السينما الفلسطينية" ضمن إطار الإعلام الموحد لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهذا أهم تنظيم سينمائي فلسطيني.

لم يكن هذا التنظيم هو الجهة الفلسطينية التي تنتج الأفلام السينمائية بل كانت هناك جهات أخرى برزت في الميدان وهي:

قسم الثقافة الفنية بدائرة الإعلام والتوجيه القومي في منظمة التحرير الفلسطينية. وأنتج هذا القسم مجموعة أفلام منها: "معسكرات الشباب" (1969) و "ذكريات ونار" (1972) و "الفداء الملح" (1973) و "على طريق فلسطين" (1974) وجميعها من إخراج إسماعيل شموط.

قسم السينما في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – تأسس عام 1970 وانتج: "النهر البارد" (1971)، "الكلمة البندقية" و"بيوتنا الصغيرة" من إخراج قاسم حول، و"على طريق الثورة" من إخراج فؤاد زنتوت.

"أفلام فلسطين" في منظمة فتح الذي تحول مؤخراً إلى مؤسسة السينما الفلسطينية في الأعلام الموحد أنتج هذا القسم مجموعة أفلام منها: "بالروح بالدم" (1970)، "عدوان صهيوني" (1972)، "ليس لهم وجود" (1974)، وهي من إخراج مصطفى أبو علي، وتنتج مؤسسة السينما الفلسطينية جريدة فلسطين المصورة التي صدر منها عددان.

1. قسم السينما في الجبهة الديمقراطية، الذي أنتج عدة أفلام أيضا منها "الطريق" و"ايار... الفلسطينيون" من إخراج رفيق حجار.

بالإضافة إلى التجربة الوحيدة التي قام بها مركز الأبحاث في هذا الصدد، عندما رعى جماعة السينما الفلسطينية وحقق فيلم "مشاهد من الاحتلال في غزة".

وكان من نتيجة ظهور السينما الفلسطينية بهذا الشكل أن دعيت إلى الكثير من المهرجانات السينمائية العربية والأجنبية، وكان المهرجان دعي إليه ممثلو السينما الفلسطينية أول مرة مهرجان دمشق الأول لسينما الشباب عام 1972. وقد حضر يومئذ السينمائيون مصطحبين أفلامهم. وكانت تلك مناسبة للتعريف بوجود سينما فلسطينة وإشهار أهدافها. وحققت المشاركة نجاحاً، ولا سيما بعد فوز فيلم "بالروح، بالدم" بإحدى جوائز المهرجان.

وتوالت بعدئذ مشاركة السينما الفلسطينية رسمياً في عشرات المهرجانات السينمائية داخل العالم العربي وخارجه. وقد شكّلت تلك المشاركات ضرباً من التظاهرات لصالح القضية، ودعماً لها، وأثبتت وجود الإنسان الفلسطيني، كما أثبتت وجود الفنان الفلسطيني المعبّر عن كفاح شعبه. ونالت الأفلام الفلسطينية في المهرجانات جوائز مرموقة، كما شارك السينمائيون الفلسطينيون في فضح الأفلام الصهيونية التي تسللت إلى المهرجانات حاملة شعارات تقدمية زائفة، أو لابسة لبوس الدفاع الكاذب عن وجهة النظر العربية.

وكما أفاد السينمائيون الفلسطينيون قضية شعبهم في المهرجانات عادت عليهم المشاركة هم أنفسهم بالفائدة، فهيأت لهم فرص الاطلاع على تجارب السينمات الأخرى النضالية والتقدمية، ولا سيما تجارب السينما الفيتنامية والكوبية والجزائرية والصينية والسوفييتية وتجارب السينمائيين التقدميين الثوريين في أمريكا اللاتينية وأوربا وأمريكا الشمالية وإفريقيا وآسيا. وفسحت لهم اللقاءات الشخصية مع ممثلي تلك السينما فرص التعرف على آرائهم وملاحظاتهم حول التجربة السينمائية الفلسطينية وحول تجاربهم الشخصية كل في بلده.

هكذا، كانت السينما الفلسطينية موجودة حتى بأفلامها التسجيلية، ولم تعد هذه الحقيقة مجالاً للاستغراب ما دام شعب فلسطين موجوداً، وهي جزء لا يتجزأ من الذاكرة الفلسطينية التي انفجرت في الزمان والمكان، واثبتت وجودها بالأفلام التي أنتجتها، وكان بعضها يوزع بمعدل 400 نسخة للفيلم الواحد، تجوب أرجاء واسعة من العالم مؤدية رسالة الثورة. وتتفاوت هذه الأفلام كيفاً وأهمية. ولئن كان بعضها مجرد أعداد من جريدة سينمائية، فبعضها الآخر حقق مستوى فنياً طيباً. وهذه وتلك ضرورية لأنها كلها رصد لحياة شعب رازح تحت الاحتلال أو نازح إلى غير أرضه، ويشترك مع ذلك هنا وهناك في الكفاح من أجل الخلاص الكبير. وهذه الأفلام التي أنتجت لغاية 1980، وهي:

1. لا ... للحل السلمي: 1968، وحدة أفلام فلسطين، مصطفى أبو علي.

يرصد رد الفعل الجماهيري في الوطن العربي ضد مشروع روجرز.

2. بالروح بالدم: 1971، وحدة أفلام فلسطين، مصطفى أبو علي.

يعرض أحداث أيلول الدامية في الأردن.

3. النهر البارد: 1971، الجبهة الشعبية، قاسم حول.

يعرض حياة الفلسطينيين في مخيم النهر البارد والبؤس الذي يلاقونه، ويصوّر العدوان الصهيوني على المخيم، ويؤكد شرعية الكفاح المسلح.

4. على طريق الثورة الفلسطينية: 1971، الجبهة الشعبية، فؤاد زنتوت.

يطرح صراع العدالة ضد الظلم والاستغلال، ويؤكد على الكفاح المسلح وضرورة استمراره كضمان لمواجهة العنف الفاشي.

5. عدوان صهيوني: 1972، وحدة أفلام فلسطين، مصطفى أبو علي.

يعرض الغارات الإسرائيلية على المخيمات في إثر عملية ميونيخ ويحض على المقاومة والصمود.

6. العرقوب: 1972، وحدة أفلام فلسطين، مصطفى أبو علي.

يعرض الحرب التي دامت أربعة أيام بين المقاومة الفلسطينية والجيش الإسرائيلي في منطقة العرقوب.

7. معسكرات الشباب: 1972، دائرة الثقافة والإعلام – قسم الثقافة الفنية، اسماعيل شموط.

يعرض تدريبات الفدائيين وخاصة المرأة، ويؤكد أهمية الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية.

8. لماذا تزرع الورد، لماذا تحمل السلاح: 1983، مشترك فلسطيني ألماني ديمقراطي، قاسم حول. يعرض مشاركة الشباب الفلسطيني في مهرجان الشبيبة العالمي العاشر، ويؤكد على التلاحم الكفاحي بين الشعوب.

9. غسان كنفاني الكلمة البندقية: 1973، الجبهة الشعبية، قاسم حول.

يقدم حياة الشهيد غسان كنفاني ونشاطاته كإنسان وأديب ومناضل.

10. ليلة فلسطينية: 1973، وحدة أفلام فلسطين، سمير نمر.

يعرض بعض جوانب الفولكلور الفلسطيني متمثلاً بليلة العرس وحفل الزواج، ثم يأتي العريس شهيداً، كما يعرض ما يعانيه الفلسطينيون في الأرض المحتلة.

11. الإرهاب الصهيوني: 1973، وحدة أفلام فلسطين، سمير نمر.
يعرض آثار العدوان الصهيوني وعسف العدو فاشيته.
12. سرحان والماسورة: 1973، وحدة أفلام فلسطين، جماعي.
يحكي قصة البطل الفلسطيني سرحان، الذي فجر أنابيب النفط عام 1936 خلال اشتراكه بالثورة.
13. ذكريات ونار: 1973، دائرة الثقافة والإعلام (قسم الثقافة الفنية)، اسماعيل شموط.
14. مأخوذ عن لوحة فنية رسمها المخرج عام 1956، ويؤكد من خلال اللوحات أهمية نضال الشعب وعدالة قضيته.
15. البنادق متحدة: 1973، الجبهة الديمقراطية، رفيق الحجار.يعالج أهمية التلاحم الكفاحي بين فصائل الثورة الفلسطينية من خلال عرضه لأحداث أيار 1973 بين قوى المقاومة واليمين اللبناني
16. مشاهد من الاحتلال في غزة: 1973، جماعة السينما الفلسطينية، مصطفى أبو علي.
يعرض وحشية الاحتلال في غزة من خلال صور وثائقية، ومقاومة الشعب البطولية لهذا الاحتلال.
17. لن تسكت البنادق: 1973، الجبة الشعبية، قاسم حول.
18. يعارض التسوية الاستسلامية ويؤكد على الرد الجماهيري واستمرار الكفاح المسلح.
19. حرب الأيام الأربعة: 1973، مؤسسة السينما الفلسطينية، سمير نمر.
يصوّر الحرب بين قوى المقاومة والجيش الإسرائيلي التي دارت في جنوب لبنان لمدة أربعة أيام. ويعرض صمود المقاومة وبسالتها.
20. النداء الملح: 1973، دائرة الثقافة والإعلام (قسم الثقافة الفنية)، إسماعيل شموط.
يصور أغنية على الغيتار لفتاة فلسطينية، ويعرض خلفيات لها واقع الفلسطينيين وأهمية المقاومة.
21. الطريق: 1973، الجبهة الديمقراطية، رفيق الحجار.
يحكي أحوال أحد المخيمات، ويربط حالة الفقر بأسبابها، ويتعرض للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والصحية والمهنية لهذا المخيم، ثم التناقض الطبقي.
22. بيوتنا الصغيرة: 1974، الجبهة الشعبية، قاسم حول.
البيوت الفلسطينية الفقيرة تحتوي قوة إنسانية جبارة أقوى من الغارات الوحشية، والبنيان العسكري الصهيوني.
23. على طريق فلسطين: 1974، دائرة الثقافة والإعلام (قسم الثقافة الفنية)، اسماعيل شموط.
يحكي أسباب مأساة فلسطين، ثم يتناول نشاطات مدارس المنظمة في الكويت، ويشير إلى أنه مهما كان وضع الطالب الفلسطيني، فلا بد له من وطن.
24. ليس لهم وجود: 1974، مؤسسة السينما الفلسطينية، مصطفى أبو علي.
يصوّر الغارة الوحشية على مخيم النبطية في جنوب لبنان ويؤكد على إصرار الشعب على المقاومة.
25. أيار .. الفلسطينيون: 1974، الجبهة الديمقراطية، رفيق حجار.
يحكي عن أيار وما يمثله بالنسبة للعالم والطبقة العاملة، ويبرز النضال الفلسطيني ويؤكد أن القوة هي التي تقف بوجه العدوان والاستيطان.
26. كفر شوبا: 1975، مؤسسة السينما الفلسطينية، سمير نمر.
يصور العدوان الصهيوني على قرية كفر شوبا اللبنانية، ويتحدث عن الأطماع الصهيونية، ويصل إلى ضرورة التحالف الكفاحي الفلسطيني اللبناني.
27. على طريق النصر: 1975، مؤسسة السينما الفلسطينية، مصطفى أبو علي.

يعرض الجهود المبذولة لبناء مدينة لأبناء الشهداء، ويتحدث عن الشهداء المعتقلين داخل الأراضي المحتلة وصمودهم.

28. الانتفاضة: 1975، الجبهة الديمقراطية، رفيق حجار.

يعرض انتفاضة الشعب الفلسطيني عام 1974 والتي دامت عشرة أيام، كما يعرض أساليب القمع الإسرائيلية.

29. مولود في فلسطين: 1975، الجبهة الديمقراطية، وألمانيا الديمقراطية، رفيق حجار.

يقدّم عرضاً تاريخياً للقضية الفلسطينية منذ مؤتمر بال حتى قيام الثورة الفلسطينية، ويشير إلى ارتباط الصهيونية بالنازية.

30. المفتاح: 1976، مؤسسة صامد، غالب شعث.

يحكي قصة أسرة طردت من فلسطين واحتفظت بمفتاح بيتها كتعبير عن تمسكها بحقها، كما يتحدث عن الإرهاب الصهيوني من خلال مسيرة هذه الأسرة.

31. خبر من تل الزعتر: 1976، الجبهة الديمقراطية، رفيق حجار.يصور أحداث مخيم تل الزعتر.

32. النصر في عيونهم: 1976، مؤسسة السينما الفلسطينية. يصور حياة الأطفال الفلسطينيين من خلال مشاركتهم في معسكر أطفال عالمي في الاتحاد السوفييتي.

33. الحرب في لبنان: 1977، مؤسسة السينما الفلسطينية، سمير نمر. يعرض الحرب في لبنان بأسلوب ريبورتاجي: طبيعتها وأسبابها.

34. رؤى فلسطينية: 1977، مؤسسة السينما الفلسطينية، عدنان مدانات.

يحكي إبداع الفنان الفلسطيني إبراهيم غنام (اللحن والغناء والرسم) ويعرض من خلال ذلك بعض الفولكلور والعادات الشعبية الفلسطينية، كما يعرض الحنين للوطن.

35. صوت من القدس: 1977، دائرة الثقافة والإعلام، قيس الزبيدي.

لقاء مع الفنان مصطفى الكرد الذي يلحن ويغني للوطن والمقاومة والثورة.

36. تل الزعتر: 1977، مؤسسة السينما الفلسطينية، مصطفى أبو علي.

يعرض أحداث تل الزعتر والمعارك وعدد من الشهادات والمآسي التي جرت، والصمود الفلسطيني.

37. فلسطين في العين: 1977، مؤسسة السينما الفلسطينية، مصطفى أبو علي. عن الشهيد المصوّر السينمائي هاني جوهرية.

38. لأن الجذور لن تموت: 1977، مؤسسة السينما الفلسطينية، نبيهة لطفي.

يعرض مجموعة لقاءات عن تل الزعتر وعن دور المرأة الفلسطينية في الثورة.

39. يوم الأرض: 1978، مؤسسة صامد، غالب شعث.

يحكي قصة يوم الأرض في الأراضي المحتلة عام 1948، وذكرى هذا اليوم، وصمود الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة ومقاومته لمصادرة الأراضي.

40. لبنان تل الزعتر: 1978، الجبة الشعبية، قاسم حول.

يتحدث عن أحداث تل الزعتر وفاشية القوى اليمينية ومقاومة أهالي مخيم تل الزعتر.

41. حصار مضاد: 1978، دائرة الثقافة والإعلام، قيس الزبيدي.

إعادة بناء وثائق سينمائية عن الاحتلال، وانتفاضة الشعب الفلسطيني، حتى كاد الاحتلال أن يكون محاصراً، بسبب إصرار الشعب على التمسك بأرضه وحقه، وصموده ومقاومته.

42. أوراق سوداء: 1979، الجبهة الشعبية، فؤاد زنتوت.

تاريخ الإرهاب الصهيوني في مراحل مختلفة في الداخل والخارج: دير ياسين، اغتيال المثقفين، التعذيب داحل السجون، نسف البيوت، العقاب الجماعي.

43. شبيبة من فلسطين: 1979، الجبهة الشعبية، علي فوزي.

عن الشبيبة ونشاطاتها ومحاولة بنائها – وتهيئتها وإعدادها.

44. الخيانة: 1980، الجبهة الشعبية، فؤاد زنتوت

رحلة السادات إلى فلسطين المحتلة، المراحل التي سبقت الرحلة والتي تلتها حتى كامب ديفيد.

45. أنشودة الأحرار: 1980، مؤسسة السينما الفلسطينية، جان شمعون.

عن مهرجان الشباب في هافانا ومشاركة الوفد الفلسطيني.

46. أطفال ولكن: 1981، مؤسسة السينما الفلسطينية، خديجة أبو علي. عن الأطفال الفلسطينيين وظروف حياتهم الصعبة.

47. أم علي: 1983، دائرة الثقافة الإعلام، محمد توفيق.

فيلم يحكي قصة (أم علي) المعروفة باسم(أم الشهداء)، يسجل قصة إمرأة فلسطينية وهبت نفسها للثورة من خلال دعمها للمقاتلين ونشاطاتها من أجلهم، وقدمت أبناءها شهداء في سبيل القضية.

48. مسيرة الاستسلام: 1981، الجبهة الديمقراطية، محمد توفيق.

49. فلسطين سجل شعب: 1982، دائرة الثقافة والإعلام، قيس الزبيدي.

50. يحكي تاريخ فلسطين، منذ 1897، والهجرة الصهيونية والاستيطان ومقاومة الشعب الفلسطيني، حتى قيام منظمة التحرير، ويضم أكبر قدر من الوثائق السينمائية والفوتوغرافية عن تاريخ فلسطين.

51. برلين المصيدة: 1982، الجبهة الشعبية، جبريل عوض. يحكي عن المخاطر المعيشية والسياسية التي يواجهها المهاجرون إلى برلين، والمزالق التي يمكن أن يقعوا بها.

52. أبداً في الذاكرة: 1983، دائرة الثقافة والإعلام، حكمت داوود. عن الشهيد الفلسطيني، ماجد أبو شرار.

53. صباح الخير يا بيروت: 1983، الجبهة الشعبية، جبريل عوض.

رؤيا ما حدث في بيروت خلال الغزو الإسرائيلي للبنان من خلال صور ووثائق التقطها المخرج بنفسه.

54. ملف قضية: 1984، دائرة الثقافة والإعلام، قيس الزبيدي.

يؤرخ للاجتياح الصهيوني للبنان عام 1982 والمقاومة اللبنانية والفلسطينية، والوقائع التي أدت إلى إسقاط اتفاقية أيار بين الحكومة البنانية والعدو الصهيوني.

55. الهوية الثقافية: 1984، دائرة الثقافة والإعلام، قاسم حول.

56. وطن الأسلاك الشائكة: 1984، دائرة الثقافة والإعلام، قيس الزبيدي.

57. الطريق إلى فلسطين: 1984، ليالي بدر.

وهو أول فيلم من انتاج فلسطيني يعتمد على الصور المتحركة.

58. الجذور: 1984، سمير نمر.

59. تيسير: 1984، محمود خليل.

60. عائدة: 1984، مروان سلامة.

61. الطفل واللعبة: 1986، الإعلام الموحد، محمد توفيق.

يحكي العدوان على مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في تونس.

62. المنام: 1978، جائزة الثقافة والإعلام، محمد ملص.

الهوامش

استخدم في هذه الورقة المصادر والمراجع الآتية:

1. أعمال ندوة "السينما والقضية الفلسطينية" التي أقامتها مجلة "شؤون فلسطينية"، في عددها العاشر، تاريخ حزيران (يونيو) 1972م. أدارها وحررها: هاني حوراني، شارك فيها: وليد شميط،

2. قاسم حول، مصطفى أبو علي، إبراهيم زاير، كريستيان غازي، قيس الزبيدي، فيصل الياسري، عمر أمير ألاى. حسين العودات: السينما والقضية الفلسطينية، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1987م.

3. وليد شميط: السينما وقضية فلسطين، "مجلة شؤون فلسطينية" العدد 42/41، كانون الثاني/ شباط 1975م.

4. مصطفى أبو علي وحسان أبو غنيمة: عن السينما الفلسطينية، أفلام فلسطين، مؤسسة السينما الفلسطينية، الإعلام الموحد، بيروت 1975م.

5. هاني جوهرية: البدايات الأولى لمؤسسة السينما الفلسطينية، الإعلام الموحد، بيروت 1974.

6. فايز غالي: الانعكاس المباشر وغير المباشر لفلسطين روائياً في السينما العربية، مجلة "شؤون فلسطينية" العدد 45، أيار (مايو) 1975م.

7. عبد الغني داود: من أجندة السينما المصرية (في مائة سنة 1896 – 1996م) – الراحلون – وزارة الثقافة/ المركز القومي للسينما، القاهرة.

8. الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثاني، مادة "سينما".

9. حوار مع المخرج الفلسطيني غالب شعث، القاهرة 2013م.

10. حوار مع المخرج الفلسطيني يحي بركات، رام الله، فلسطين، 2015م.